سقوط بعد سقوط [1]

آية الله العظمى السيد محمد الشيرازي

قدس سره

مقدمة المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربِّ العالمين والصلاة والسلام على محمّد وآله الطاهرين .

«سقوطٌ بعدَ سُقوط» عنوانُ هـــذه الرّسالة الـــتي سطِّرت لبيان مشاكل العالم الإسلامي ، وكيفية معالجتها أو التخفيف من غلوائها .

فالمسلمون ككيان ممتد عبر التاريخ المديد سقطوا دينياً ، وبعد ذلك سقطوا دنيوياً ، ولولا إرادة الله سبحانه فـــي نصر دينه والحفاظ على كتابه ، لما بقيت لهذه الأمة باقية ، مثلهم كمثل الأمم والمجتمعات التي سقطت واندثـــرت ، بسبب أعمالها الوضيعة المخالفة للعقل وللفطرة البشرية : (فَهَل تَرى لَهُم مِن باقيَةٍ)(١).

فأين الكلدانيون ؟

وأين الآشوريون ؟

وأين الفينيقيون ؟

وأين قوم لوط ؟

وأين أصحاب الرّس ؟

وأين الفراعنة ؟

لقد داستهم أقدام التاريـــــخ ، واصبحوا فـــــــي خبر كـــــــان ، فـــــــلا تسمـــــــع حتى حـــــسيسهم ، (وأُتبِعُوا في هـــــــذهِ الدُّنيا لعنَةً ويـــــــــومَ القيامَةِ...)(٢)، لقد جرى عليهم القدر الإلهي ، وجرت عليهم سنة الله فـــي خلقه : (فلَن تجِدَ لسنّة الله تبديلاً ولَن تَجدَ لسنّة اللهِ تحويلاً)(٣).

فالحياة هي ميدان صراع فعندما يكون بين الحق والباطل ، فإنه حتماً سينتهي إلى الحق : (بل نَقذِفُ بالحقِّ على الباطل فيدمَغُهُ فإذا هو زاهقٌ ...) (٤).

---

(١) ملاحظة: أخذنا نص هذا الكتاب من الانترنيت موقع الإمام الشيرازي قدس سره، ولابد من مطابقته مع الأصل المطبوع للتأكد من سلامته وعدم التغيير والحذف والتبديل فيه.

أمّا عندما يكون الصراع بين الباطل والباطل فإنه سينتهي بالمجتمع إلى الانهيار فلا انتصار ــ بالمعنى الحقيقي للكلمة ــ للباطل بل خسران في خسران .

وسنة الله فـــي الحياة هي التناقص ، يقول تعالى : (أنّا نأتي الأرض ننقُصُها من أطرافها ...)(٥).

فالأمم كالأشجار التي تنمو فتقوى فتضمحل ثم تذبل ليقوم مقامها شجرة أخرى وهكذا .

ومثلها مَثلُ المدن الـــتي تنشأ وتتوسّع لتترامى أطرافها ثم تضمحل لتقوم مقامها مدينة أخرى .

هكذا الأمم والحضارات تتلاشى بعد أن تعمِّر سنـــين ، وبعد أن يكون لها كيان وكيانات .

وقد لا تموت أمة بالكامل فيبقـــى هناك باقية تكون عبرة للآخرين كالصابئة والزرادشتية وعُباد الأوثان ، فهناك مجاميع صغيرة لازالت تعيش حتى الآن .

وحتى في نطاق الإسلام والمسلمـــين ، هناك فِرَقٌ فُنيت عن بكرة أبيها ، وهناك فِرَقٌ لازال لها بقايا وأطلال(٦).

أمّا الإسلام الحق فهو الباقي على مدار الزمن ، وهو الراسخ رغم أعاصير المحن .. وسرّ بقاءه هو القرآن الكريم والسنة المطهّرة والمعصومون من آل بيت الرسول الأعظم «صلوات الله عليهم» ، فوجود هذه الثروات منحتا المسلمين الديمومة ومنحتا الإسلام المنعة.

لقد مرّت على الكيان الإسلامي أعاصير هوجاء ، وتلقّى الإسلام والمسلمون الضربات تلو الضربات من الداخل والخارج .

لكن ظل الإسلام شامخاً . (يعلوا ولا يعلى عليه)(٧)، كما ورد في الحديث الشريف ، وكما ورد في القرآن الكريم : (وأنتُم الأعلَونَ إن كُنتُم مؤمنينَ)(٨). فالإسلام لا يعلى عليه مـــن حيث المنهج وصحة الدساتير وكونه ضمانة للحياة الفضلى السعيدة فيما لو طبق .

وهذه القوة التي يستمدّها المسلمون من قرآنهم الكريم ومن سنة نبيّهم العظيم والأئمة المعصومين هي الطريق للعبور إلى الخلاص ، وهي الجسر إلى عالم أفضل ، يسعى الجميع للوصول إليه .

نسأل الله أن يأخذ بأيدينا إلى ما هو أفضل ، حيث السعادة والأمن والطمأنينة في الدنيا والآخرة .

إنّه نِعمَ المولى ونِعمَ النصير .

قم المقدسة

محمد الشيرازي

١ ــ سورة الحاقة : الآية ٨ .

٢ ــ سورة هود : الآية ٦٠ .

٣ ــ سورة فاطر : الآية ٤٣ .

٤ ــ سورة الأنبياء : الآية ١٨ .

٥ ــ سورة الرعد : الآية ٤١ .

٦ ــ إنّ عدد الفرق الإسلامية الــتي وجدت عــبر التاريــخ ثلاث وسبعين فرقة ، أغلبها اندرست وانمحت من الوجود وبقي عدة فرق لا تعد بأصابع اليد .

٧ ــ بحار الأنوار : ج٣٩ ص٤٧ ، مستدرك الوسائل ج١٧ ص١٤٢ .

٨ ــ سورة آل عمران : الآية ١٣٩ .

الفصل الأول: السقوط الديني

معنى السقوط الديني وأسبابه

وما هو المقصود بهذه العبارة ؟

إن معنى السقوط دينيّاً هو أنّهم تركوا العمل بأحكام القرآن الكريم والسيرة النبوية والإقتداء بالعترة الطاهرة «عليهم أفضل الصلوات» .

وليس المقصود ــ بالسقوط الديني ــ ترك الصلاة أو ترك الحج أو ترك بناء المساجد أو ترك قراءة القرآن ، وما إلــى ذلك من الأحكام الإسلامية ، والشعائر الدينيّة ، إذ لازال كثير من المسلمين يقوم بها .

وإنّما المقصود بالسقوط الديني هو تركهم مجموعة من أهم الأسس التي يقوم عليها الحكم والإدارة والمجتمع في الإسلام ، ومن هذه الأُسس :

١ ــ «الشورى» يقول تعالى : (وشاورهُم في الأَمرِ)(١).

لقد بدأ الانحــطاط ومعه بدأ السقوط ــ وإن كان الظاهر يوحي بغير ذلك فــي بعض الفترات ــ فــي تلك الساعة التي ترك حكام المسلمين مبدأ الشورى .

وأخــذ الاستبداد ينخر في جسم الكيان الإسلامي ، فتحوّل كلّ شيء إلى ضدّه ، وبات الإسلام مجرّد طقوس وشعارات ، وشيئاً فشيئاً بدأت معالم الدين تتغيّر وتتبدّل وتأثّرت العلاقات الاجتماعية بالحالة الدينيّة .

٢ ــ مــع ضعف الدين فــي النفوس ضعفت الجوانب الأخلاقية وضعفت معها روح الأخوّة الإسلامية . الأخوة الإسلامية الــتي يتساوى علــى أساسها جميع المسلمين في الحقــوق والواجبات ، حلّت محلّها الحالة القومية والقبلية والقروية .

وكان من أبرز مصاديق مَن مال إلى القومية واتخــذها منهاجاً في الحكم والإدارة : بنو أمية ، فهم أسّسوا دولة تقوم علــى المزج بين مظاهر الدين والقوميّة(٢).

وفي مقابل دولة معاوية كانت تقف دولة الإمام علي «عليه السلام» القائمة على القرآن وعلى السنة النبوية .

٣ ــ وتسبّب أفول الدين لدى المسلمين في كبت الحرّيات المشار إليها في قوله تعالى : (يضَعُ عنهُم إصرهُم والأغلال التي كانَت عليهُم ...)(٣).

قــال رسول الله «صلى الله عليه وآله وسلم» : (الناس مسلطون على أموالهم)(٤)، وأضاف الفقهاء بالضميمة إلــى المال «وأنفسهم»، مستفيدين ذلك من قوله سبحانه وتعالى : (النبيُّ أولى بالمؤمنينَ من أنفُسِهِم...)(٥).

حيث دلّت الآية الكريمة على : إنّ كلّ إنسان له الولاية على نفسه حتى تتحقّق الأولوية الكائنة للنبي «صلى الله عليه وآله وسلم» . ولذا استنبط الفقهـــاء القاعـــدة الفقهيّة : (الناس مسلّطون على أموالهم وأنفسهم) (٦).

فالإنسان خُلق حرّاً ، وسيبقى حرّاً إلاّ في المحظورات وهي المحرّمات الشرعيّة(٧).

أمّا اليوم فالّذي نراه فـــي قوانين الحكومات ، إن قائمة الممنوعات تجاوزت قائمة المحرّمات الشرعية إلى مئات الأضعاف .

فكلّ ما يريد أن يفعله الإنسان من سفر وحضر عمل وأعمار و... فهو بحاجة إلى إجازة ورخصة وهوية وجنسية و... .

٤ ــ وقد نُبذت وراء الظهر أيضاً الأمّة الواحدة الـــتي تعتبر أساساً من أسس الدين والمجتمع ، يقول الله سبحانه : (وإنّ هذهِ أمّتُكم أمّةً واحدةً ...)(٨).

آثار ترك القانون الإسلامي

فالمسلمون أضحوا أمماً بـــدلاً من أمّة واحدة ، وأصبحوا مصداقاً لقول الشاعر :

فتفرّقـــوا شيعاً فكل قبيلة فيهـــا أمير المـــؤمنين ومنبر

هذا يحارب ذاك ليل نهاره والحرب من ذاكم لهذا مسعر

وأصبحت الحروب التي نشبت بينهم أكثر من الحروب التي دارت بينهم وبين أعدائهم .

فخلال ثلاثة عقود قامت بـــين المسلمين سبعة حروب ، بينما لم تنشب بينهم وبين غير المسلمين سوى أربعة حروب(٩).

وحتّى عندما تنشب حرب بين المسلمين وغير المسلمين فلا نجد سائر المسلمين يقومون بنصرة إخوانهم .

فهل نصر أحدٌ من بلاد الإسلام أخوتهم في البوسنة ؟

وهل نصر أحد من بلاد الإسلام أخوتهم من الشعب العراقي من ظلم صدام ؟

فتلك قضيّة دولية وهذه قضية داخلية كما يزعمون !!

هكذا تعاملوا مع القضايا الإسلامية .

إنّ تقدّم الإسلام والمسلمين مرهونٌ بالأمرين معاً : بالشعائر والمشاعر بالإحكام العبادية والأحكـــام الحيـــوية .. بإقامة الصـــلاة وبالأخوة الإسلامية .. بالصوم وبالأمّة الواحدة .. بالجهاد وبالشورى. فالعبادات شعائر ، والأخوة والأمّة الواحدة والشورى والحرّية مشاعر(١٠).

إذ لولا مشاعر البعض نحـــو البعض الآخر ، فلا الأخـــوة لها قيمة ولا الأمّة الواحدة لها مفهوم ولا الشورى لها معنى .

وكان المسلمون إلـــى الأمس القريب أعزّاء وأقوياء ، لأنّهم كانوا يعملون بالأمرين معاً .

فلا غرابة إذن إن ينهار كيان المسلمين ، لأنه لا يقـــوم الآن على الأعمدة الإلهيّة الرصينة والقوية ، وكما قال الشاعر :

يعجبون من سقمـــي صحـــتي هي العَجَبُ

وقال تعالى : (ولن تجد لسنّة الله تحويلاً)(١١).

ولنا أن نقول بأنّ حصيلة ما تقـــدّم : إنّ انهيار الكيان الإسلامي «وسقوطهم دينيّاً» يعود إلى عامل الاستبداد الـــذي أخذ يتفشى في الحكم وفي المجتمع وفي العائلة ، ففقدوا حريتهم وتنازلوا عن الأحكام الإسلامية التي تضمن عزّهم وارتفاع شأنهم .

أمّا سبب الاستبداد فهو ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وقد ورد في الحديث الشريف : (لا تتركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيولّـــى عليكم شراركـــم ثـــمّ تدعون فـــلا يستجاب لكم)(١٢).

، فكانت الأمّة الإسلامية خير أمّة يوم كانت تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر .

وقد قال تعالى : (كُنتُم خَيرَ أمّةٍ أخرجَت للنَّاسِ تأمُرُونَ بالمعروُف وتَنهَون عن المنكرِ...)(١٣).

وظاهر التعقيب إنّ «الخيرية» تناط بالأمـــر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وإن الثاني بيان للأوّل .

١ ــ سورة آل عمران : الآية ١٥٩ .

٢ ــ تحدث الإمام المؤلّف «دام ظله» عن القومية ودويلاتها في كتاب : «القوميات في خمسين سنة» .

٣ ــ سورة الأعراف : الآية ١٥٧ .

٤ ــ بحار الأنوار : ج٢ ص٢٧٢ ح٧ .

٥ ــ سورة الأحزاب : الآية ٦ .

٦ ــ تفصيل ذلك في كتاب القواعد الفقهيّة للإمام المؤلف «دام ظله» .

٧ ــ والتي لا تتعدّى الآحاد في قِبال الحرّيات الإسلامية ، أنظر كتاب «الحرية الإسلامية» وكتاب «الواجبات والمحرّمات» للإمام المؤلف «دام ظله العالي» .

٨ ــ سورة المؤمنون : الآية ٥٢ .

٩ ــ الحروب التي نشبت بين المسلمين هي : ١ــ حـــرب البنغال والباكستان ٢ــ الحرب اللبنانية ٣ــ الحرب العراقية الإيـــرانية ٤ــ حرب اليمن أيام عبد الله السلال ٥ــ حرب اليمنيين ٦ــ حرب الخليج ٧ــ حرب المغـــرب والصحـــراء الغربية . أمّا الحروب الأربعة التي حدثت بين المسلمين وغيرهم فهي ١ــ حرب المسلمين مع إسرائيل ٢ــ حرب الباكستان والهند ٣ــ حرب الأفغان والروس ٤ــ حرب المسلمين مع الصرب .

١٠ ــ من الواضح إنّ هذه إشارات للمقصد وليست بالحد ولا بالرسم .

١١ ــ سورة فاطر : الآية ٤٣ .

١٢ ــ نهج البلاغة : كتاب ٤٧ .

١٣ ــ سورة آل عمران : الآية ١١٠ .

الفصل الثاني: السقوط الدنيوي

دلائل السقوط الدنيوي

ولقد سقط المسلمون دنيوياً :

والدليل : إنّ نظرة واحدة إلى واقع المسلمين اليوم تنكشف لنا هذه الحقيقة . فالمسلمون اليوم في العراق والعديد من الدول الأخرى لا يستطيعون بناء مسجد في المدن المقدّسة من أمثال النجف وكربلاء ، بل لا يستطيعون حتى الصلاة في المسجد ، فأكثر المساجد هناك أمّا مغلقة أو مهدّمة أو لا يجرأ أحد على الاقتراب منها ، لأنّه سيعرِّض نفسه لعلامات الاستفهام أو في الكثير من الدول الأخرى ، نجد بناء المسجد يخضع لضوابط وتعقيدات ومقرّرات وما إلى ذلك . وبنظرة لعامّة بلاد الإسلام : هل بمقدور أحد أن يبني بيتاً بدون ترخيص ؟

وهل بمقدور أحد أن يُعرب عن مكنون ضميره وعن آرائه ومعتقداته؟

وهل بمقدور أحد أن ينتقل بين البلدان الإسلامية بدون جواز ؟

وهل باستطاعة أحد أن ينتقل من نقطتين الفاصل بينهما عدّة أمتار أو نهر، كما هو الحال بين العراق وإيران ، حيث لا يفصل بينهما سوى نهر ، وحيث يعيش على أطرافي النهر عشيرة واحدة لا تستطيع أن تنتقل إلى الضفة الأخرى بسبب القوانين الجائرة كالإجازة والجنسية.

وسفر الحج (الذي جَعَلناه للناس سواءٌ العاكِفُ فيهِ والبادِ)(١)، و(قياماً للنّاس)(٢)، أصبح أيضاً من الأمور العسيرة .

ففي السابق كان سفر الحج متاحاً للناس بكامل الحرية ، أما اليوم فلابد من ترخيص وجواز . أصبح المسلمون اليوم مكبّلين بأغلال القوانين الوضعية حتى مَن يريد أن يختن مولوده .

ومن يريد أن يزوج بنته ، بل حتى من يريد أن يدفن ميّته !

ومن يريد أن ينتقل من بيته إلى بيت آخر

ومن يريد أن يحتجم

ومن يريد أن يبنّي بيتاً

ومن يريد أن يرمّم داراً

كل عمل من هذا القبيل لا يتمّ إلاّ عبر وسائط وضوابط وقوانين ما أنزل الله بها من سلطان .

أمّا لو أراد أحد المسلمين أن يؤسّس مركزاً أو مصنعاً أو يزرع أرضاً فإن أكثر من معوّق سيواجهه .

والسبب في ذلك : إنّ هناك من يخشى تحرّر المسلمين وتقدمهم فأكثر الحكام الذين وصلوا إلى الحكم ، جاءوا (بقطار انكلو أمريكي)(٣)، أي بقرار من الاستعمار الغربي .

وأخذ الاستعمار يتدخّل في كلّ شيء مـــن شؤون المسلمين عبر هؤلاء الحكام وعبر القوانين الجائرة .

قال أحد الوزراء فـــي عهد عبد السلام عارف(٤): (إنّ عبد السلام أقل شأناً من خادمٍ عادي فـــــي دارك وأوضـــــح ذلك) بـــ (إذا قلت لخادمك : اسق الحديقة ، فـــــإن عليك أن تـــــعطيه الحق أيضاً لأن يقول لك : لا تحتاج الحديقة إلى السقي لأنّي قد سقيتها من قبل) .

إلاّ إن الرئيس وهـــو «عبد السلام عارف» إذا قـــال له السفير الأمريكي أو السفير البريطاني أفعل كذا أو لا تفعل كذا ، فإنه لا يحقّ له أن يقول لا !

لأنّ «لا» تعني : الوداع مع السلطة والاستبدال بعميل آخر !

مصير الكفاءات

حدثت هذه القصّة لأحد أصدقائنا في إحدى البلدان الإسلامية ، وهو تاجر مرمـــوق إذٍ أراد هـــذا التاجـــر أن ينشأ مصنعاً لتجميع السيّارات المستوردة بعد استيراد مكائنها من الخارج .

قلت له : لا تـــدخل الحلبـــة فإنّهم لا يفسحون لك المجال ، لأنّ الصناعة فـــي العالم الإسلامي ليست بأيدي المسلمين بل هي بأيدي المستعمرين .

وذكرتُ لهُ قصة ذلك المهندس العراقـــي الذي استطاع أن يصنع «ساعة يدوية» دونما حاجة إلـــى قطع الغيار الأجنـــبي ، حيث كان مصيره الاختفاء .

وحكيتُ له قصّةً من إيران ، محمد رضا بهلوي الذي كان يريد أن يقلّد الغرب ، وكان يريد أن يفتح علـــى إيران أبواب الحضارة على مصراعيها ـــ على حدّ قوله ـــ فقد استطاع أحد الأشخاص أن يصنع دولاباً يدور بالهواء و لم يمض عليه وقت طويل حـــتى أُلحق بالمهندس العراقي !!

وقلت له : إنّ مصير الكفاءات فـــي بلادنا إمّا القتل أو الهجرة أو العزلة ، فلم يقتنع بكلامي بادئ ذي بدء . وانصرف صاحبنا للحصول على الترخيص .. وأمضى وقتاً طويلاً بين المكاتب ، مكتب هذا الوزير ، ومكتب هذا المدير ، ومكتب هذا المسؤول ، وبعد فترة طويلة من المماطلة والوعود الكاذبة ، قالوا له : أجِّل الأمر .

ومات صاحبنا ـــ رحمه الله ـــ قبل أن يحصل على الإجازة !

الاستبداد أداة التحطيم

ما هو الفرق بيننا وبين الهند التي استطاعت خلال فترة وجيزة وبإمكانات محدودة أن تتقدم صناعياً وتعتمد على نفسها في الصناعة بدء من الابرة وحتى القنبلة الذرية ؟

لماذا عجز المسلمون حتى عن صنع الابرة ؟ في قِبال الآخرين الذين لا يفوقونهم لا في الذكاء ولا في الإمكانات .

بل العكس استطاع من هـــو دونهم فـــي الكفاءات ودونهم فـــي الإمكانات أن يتقدّم أشواطاً وأشواطاً ، بينما هم لازالوا واقفين على أوّل الطريق . ليس هناك فارقٌ إلاّ في جوهر الحكم .

فالحكم في الهند يقوم على مبادئ الشورى والأكثرية والانتخابات الحرّة والتعدّدية السياسية .

أمّا عندنا ـــ في بلاد الإسلام ـــ فلا شيء غير الاستبداد .

والاستبداد يحطّم الكفاءات ويقضي على القدرات والإمكانات ، قال الله تعالى : (لا إكراه في الدِّين)(٥).

وقد ورد فـــي القرآن الكريم : (وأمرُهُم شُورَى بَينهُم ...)(٦)، (وتشاورٍ...)(٧)، (وَشَاوِرهُم في الأمرِ ...)(٨)، وكان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يستشير أصحـــابه وكذلك الإمام علي (عليه السلام)، ويقول الإمام (عليه السلام) : (مَن استبد برأيه هلك ومن شـــاور الرجال شاركها في عقولها) (٩).

نموذجان من التبعية للغرب

١ـــ قام (رضا خان)(١٠) البهلوي الأول أبان حكومته بردم (٦٣) ألف قناة وجدول ، كانت تسقي الأراضي الزراعية فتحطمت الزراعة في إيران .

وعندما جاء ابنه (محمد رضا) إلى الحكم وضع برنامجاً للزراعة سمّاه (الإصلاح الزراعي) ممّا أدّى إلى إفساد الزراعة فـــي إيران وجعلها محتاجة إلى الغرب حتى في القمح والحليب ومشتقّاته ، وأضحت إيران تابعة للغرب في كلّ شيء حتى لقمة العيش .

٢ـــ العـــراق : فقد كان قبل ثلاثة أو أربعة عقود يصدِّر الحنطة والرُّز بالإضافة إلـــى التمر والفواكه ، فقد كان يعيش حالة الاكتفاء الذاتي ، وعندما حدث الانقلاب العسكري في العراق عام ١٣٧٧هـــ (١١) أصبحت تبعية العراق للغرب مضاعفة .

فبعد إن كان تابعاً في الجانب السياسي ، أضحـــى تابعاً له في كلّ الجوانب حتى في لقمة العيش .. وهذه هي التبعية المطلقة .

النهب المبرمج

خلال نصف قرن استطاع الغرب أن ينهب الكثير مـــن خيرات وثروات البلاد الإسلامية وأن يستقطب الكفاءات .

وكنتُ أحرص على مراقبة هذا الأمر .

فقد بنى الغرب حضارته من ثروات المسلمين

بنى المصانع من نفط المسلمين

وصنـــع الطائرات والسيّارات وما شابه ، من الحديـــد والألمنيوم المستورد من البلاد الإسلامية .

حتى الأحجار التي استوردوها من بلادنا استخرجوا منها الفوسفات واستخدموها كسمادٍ للزراعة ثمّ أعادوها إلينا ، وباعوا لنا نتاج ثرواتنا من غذاء وآلات بأسعار مضاعفة جداً .

لقد كان من نتائج النهب المتواصل للبلاد الإسلامية هو إفقار هذه البلاد ، فخرج المسلمون من بلادهم يبحثون عن المأوى ولقمة العيش.

وفي تقرير نشرته إحدى الصحف التي تصدر فـــي إحدى الدول الأوربية يذكر التقرير إنّ «٩٠./» من مشردي العالم هم من المسلمين.

وهذه هي النتيجة الطبيعية للنهب الاستعماري واستبداد الحكام .

العامل الرئيسي للانهيار

كلّ ما تقدّم ذكره من المآسي والويلات والهزائم ما هو إلاّ نتيجة ترك المسلمين للقرآن والسيرة العطرة (ومَن أعرَضَ عن ذكري فإنَّ لهُ معيشةً ضنكاً)(١٢)، ولكي لا يكون الكلام عاماً ، ولمزيد من التحديد نقول : يعود السبب في انهيار الحضارة الإسلامية إلى ترك المسلمين للآيات الأربعة الواردة في القرآن الكريم : (إنّ هذه أمّتُكُم أمّةً واحدةً)(١٣)، (إنّما المؤمِنُون إخوَةٌ)(١٤)، (ويضعَ عنهُم إصرهُم والأغلال التي كانت عليهم)(١٥)، (وأمرُهُم شُورى بينَهُم...) (١٦).

فترك الآية الأولى ، جعل من المسلمين أمّة ممزّقة متناثرة لا يشعر سائر الجسد بالحمى إذا اشتكى منه أحد الأعضاء .

وبترك الآية الثانية ، انهارت العلاقات الاجتماعية الصادقة القائمة على روح الأخوة والإخلاص ، وحلّت محلها العلاقات المادّية القائمة على الأنانية وحب الذات .

وبترك الآية الثالثة والرابعة : حلّ الاستبداد وانتهت الحرّيات واصبح المسلم قتيلاً ، أو سجيناً ، أو مطارداً أينما حل .

من هنا يتبين لنا أن ترك المسلمين للقرآن لا يعني إنهم تركوا قراءته أو تركوا تجويده وتحفيظه أو طبعه أو تدريسه .

فهناك الإذاعات التي خُصصّت للقرآن

وهناك المدارس الكثيرة التي تقوم بتعليم القرآن

وهناك عشرات المسابقات السنوية حول القرآن

وهناك الآلاف من حفظة القرآن ، وكلّ ذلك حسن وضروري ولا نعني بترك القرآن هذه الأمور ، التي لازال المسلمون يعملون بها ، وفقهم الله إلى المزيد .

لكن ما نقصده هو : العمل بالقرآن ، حمل القرآن في القلوب وفي السلوك ؛ التبصّر بمفاهيم القرآن وقيمه حتى يصبح كلّ مسلم إنساناً قرآنياً .

١ ــ سورة الحج : الآية ٢٥ .

٢ ــ سورة المائدة : الآية ٩٧ .

٣ ــ على حدّ تعبير علي صالح السعدي نائب رئيس الوزراء ووزير الداخلية في وزارة البكر الأولى في عهد عبد السلام عارف .

٤ ــ عبد السلام عارف من مواليد سنة ١٣٣٩هـ (١٩٢١م) في مدينة الرمادي ، تخرّج من الكلية العسكرية سنة ١٣٩١هـ (١٩٤٢م) برتبة ملازم ثاني . كان من أعضاء الضباط الأحرار ، وأصبح رئيسا

للجمهورية بعد الإطاحة بنظام قاسم في ١٤ رمضان ١٣٨٢هـ (٨شباط ١٩٦٣م) . اتسم حكمه بالكبت والإرهاب والعنصرية ، واكترث بتعيين الأقارب وأبناء العشيرة والبلدة في إسناد المناصب بغض النظر عن المؤهلات والقابليات والكفاءات .

قُتل مع عدد من الوزراء في ٢٣ ذي الحجة ١٣٨٥هـ (١٣/٤/١٩٦٦م) إثر سقوط طائرته في منطقة قرب البصرة بسبب هبوب عاصفة رملية .

٥ ـ سورة البقرة : الآية ٢٥٦ .

٦ ـ سورة الشورى : الآية ٣٨ .

٧ ـ سورة البقرة : الآية ٢٣٣ .

٨ ـ سورة آل عمران : الآية ١٥٩ .

٩ ـ نهج البلاغة ، قصار الحكم : ١٦١ . ومن ملازمات الهلاك هو الإهلاك للآخرين، وقد تحدث الإمام المؤلف عن إلزامية الشورى والنصوص الواردة فيها في كتاب» الشورى في الإسلام« .

١٠ ـ ارمني من منطقة كرجستان ، ولد سنة ١٢٩٥هـ (١٨٧٨م) ثم هاجر إلى إيران في زمن القاجار ، وأصبح وزيراً للحربية في حكومة أحمد القاجاري ، واستلم الحكم في ١١ شوال ١٣٤٤هـ (١٩٢٥م) بعد انقلاب عسكري على دولة القاجار ، واستمر في الحكم إلى ١٣٩١هـ (١٩٤١م) . اتسم حكمه بإحياء القومية الفارسية ونشر المذهب البهائي والقضاء على المعالم الإسلامية وهدم المساجد والمدارس والحسينيات ، ومنع العلماء ورجال الدين من ممارسة أدوارهم في الحياة ، فقد قتل بعضهم وسجن وعذب البعض الآخر ، ونشر الخمر والزنى والقمار ومنع النساء من ارتداء الحجاب ، وحطّم اقتصاديات البلاد ، وقتل في انتفاضة مسجد (كوهرشاد) ما لا يقل عن ثلاثة آلاف إنسان .

أقصاه الإنجليز عن الحكم بعد أن نصبوا ولده محمد رضا في رمضان ١٣٦٠هـ ، ونفي رضاخان إلى جزيرة موريس وقتل هناك في رجب ١٣٦٣هـ .

١١ ـ وكان بقيادة عبد الكريم قاسم والذي ولد في بغداد عام ١٩١٤م ، وحصل على رتبة زعيم ركن عام ١٩٥٥م .

قام بانقلاب عسكري صبيحة السابع والعشرين من ذي الحجة عام ١٣٧٧هـ (١٤/٧/١٩٥٨م) وأطاح بالحكم الملكي وأعلن الحكم الجمهوري وشكّل مجلس السيادة لإدارة البلاد وترأس مجلس الوزراء إضافة إلى وزارة الدفاع ، وألغى المظاهر الديمقراطية كالبرلمان والتعددية الحزبية ما عدا الحزب الشيوعي الذي أضحى الحزب المحبّب للسلطة ، وألغى الحكم المدني وأعلن الأحكام العرفية ، وأستمر حكمه ١٦٦٦يوماً عندما تعرض لانقلاب عسكري دبره عبد السلام عارف مع مجموعة من الضباط البعثيين .

١٢ ـ سورة طه : الآية ١٢٤ .

١٣ ـ سورة الأنبياء : الآية ٩٢ .

١٤ ــ سورة الحجرات : الآية ١٠ .

١٥ ــ سورة الأعراف : الآية ١٥٧ .

١٦ ــ سورة الشورى : الآية ٣٨ .

الفصل الثالث: أسباب النهوض

الوعي مفتاح النهوض

من أين نبدأ النهوض ؟

في المثل إذا عُرف السبب بَطُلَ العَجَب .

وعلـــى رأي الحكماء : (إذا عرفت علة الضدّ تعرف علة ضدّه) وحيث إنّنا عرفنا أسباب السقوط سنتعرّف منها على أسباب النهضة .

وهي بالطبع الرجوع إلى أحكام القرآن ، وأوّلُ خطوةٍ نحو ذلك : التوعية الحيوية والتنظيم الصحيح .

والوعي على أنواع :

فهناك وعيٌ بالعقيدة

وهناك وعيٌ بالمعاملة

وهناك وعيٌ بالأخلاق والآداب

فكلّ ذلك صحيح وضروري ، لكن يجب إلى جوار ذلك كله : الوعي بأمور الحياة وفهم الحياة .

يقول الله سبحانه وتعالى : (إذَا دَعَاكُم لِمَا يُحييكُم ...)(١).

وهذا الذي لا يريده الغرب ولا يريده الذين سلّطهم الغرب على رقاب المسلمين من حكّام وظالمين .

إنهم يفتحون لنا المدارس ، ويفرضون علـــى أبنائنا القراءة والكتابة ولكن تحت لواءهم ولتحقيق مآربهم ونزواتهم ونشر ثقافتهم .

يعلّموننا ركوب السيّارات ولكن لا يَدَعونا أن نتعلّم كيف نصنع السيّارات ؟

وكيف نصنع الطائرات ؟

وكيف نصنع الكمبيوتر ؟ وما أشبه ذلك .

إنّهم يعلّموننا كلّ شيء إلاّ (فن الحياة) .

و«فن الحياة» هو كيف تمتلك مقومات الحضارة ؟ وكيف تعيش سعيداً ؟ وكيف تعيش عزيزاً ذا كرامة ؟

إذن : طالما لا يريد الغرب لنا التقدّم ، فلنعمل بأنفسنا ولنحاول أن نتقدّم دون مدّ اليد إلى الغرب .

وطريقنا إلى ذلك هو : الحرّية والشورى والأمّة الواحدة والأخوة الإسلامية وجمع الكلمة ورجاء الله واليوم الآخر .

فـــ : (مَـــن سمـــع رجـــلاً ينادي : يا للمسلمين فلم يجبه فليس بمسلم) (٢).

(أحب لأخيك المسلم ما تحب لنفسك) (٣).

(المسلم من سلم المسلمون من يده ولسانه) (٤).

(المسلمون أخوة تتكافؤا دمائهم يسعى بذمتهم أدناهم) (٥).

(فما آمن بي من بات شبعاناً وجاره المسلم جائع) (٦).

إلى عشرات بل مئات من الأحـــاديث والروايات التي تملأ كتب السيرة الطاهرة قولاً وعملاً وتقريراً .

عاملا النصر

هذه هي الثقافة الحقّة التي بواسطتها يستطيع المسلمون أن يشقّوا نصف الطريق ، ويبقى أمامهم النصف الثاني .

والنصف الثاني هو : (التنظيم الصحيح) .

والتنظيم بنفسه صعب إلاّ أنّه أصعب في البلاد المتخلّفة ، لذا كان لابدّ من التحلّي بالصبر الطويل وبسعّة الصدر إلـــى جانب مقدّمات أخرى عديدة(٧).

ومنشأ الصعوبة في التنظيم إنّه يقوم علـــى أذواق وأفكار وأمزجة مجموعة من الناس ، والتي هي بالطبع مختلفة ، فحتى الشخص النـــزيه الذي لا يريد مالاً ولا جاهاً يختلف موقفه من التنظيم ومناهجه ومواقفه تبعاً لأفكاره وتصوّراته وعواطفه . فقـــد خلق الله تبارك وتعالى نفوس الناس على أنماط مختلفة ـــ كما خلق الناس على أشكال مختلفة ـــ .

لذا كان مـــن الطبيعي صعوبة جمع عـــدد مـــن الناس وتعاضدهم وتعاونهم نحو هدف معين خصوصاً والتنظيم بحاجة إلى التربية المستمرة، والتي تبدأ من الصفر حتى يصل المنظمون إلى مراحل النضج ، وهذا أمرٌ صعب التحقّق في البلدان الإسلامية ـــ في الحال الحاضر ـــ .

قال أحـــد رؤساء فرنسا : (من يريد أن يحكم فرنسا لابدّ له أن يعرف حتى أقسام الجبن الموجود في هذا البلد) وأضاف (وهي ثلثمائة قسم) !!

وقد كان من علل صعوبة ذلك في بلاد الإسلام إنّها وقعت تحت فوضى العثمانيين(٨) والقاجاريين ومن شابههما وسلوكهم الخاطئ في الحكم قروناً متمادية .

ومـــن الطبيعي إنّ الأرضية الصالحة والطالحة والعادات المتوارثة وأفكار الآباء والأجداد ونمط العلاقات الاجتماعية والتربوية لها تأثيرها السلبي أو الإيجابي على الأجيال اللاحقة .

إنّ العديد من الأحزاب والحركات الإسلامية منها وغير الإسلامية ما وصل منها إلى الحكم وما لم يصل ، لم يزيدوا الطين إلاّ بلّه كما يقول المثل. فالتي وصلت حكمت البلاد بنفس الطريقة التي حكمها الآخرون، فبدل أن تكون عوناً للمسلمين أصبحت فرعوناً كما يقول المثل ، والتي لم تصل إلى الحكم ابتليت بداء العنجهية والاعتباطية والتشتت .

التنظيم الشامل

وبعد تأسيس التنظيمات ، لابدّ مـــن جمع التنظيمات المختلفة في جبهة واحدة ـــ مع الاحتفاظ بقاعدة التعدّدية ـــ ويكون كحكومة فدراليّة مثلاً ، فالتنظيم الواحد الشمولي لكلّ بلاد المسلمين يوفّر للأمّة عوامل التقـــدّم ويكـــون بمستوى الصراع العالمـــي ، وعندما تكون التنظيمات متشتتة لا يجمعها جامع ولو كلّي وفـــي الخطوط العريضة فإنّها لا تستطيع أن تقاوم الاستعمار .

لذا لم نجد طيلة هذا القرن حتى بلداً إسلامياً واحداً أخذ بأسباب النهوض ، فالنهضة لا تأتي بالمعجزة .

صحيحٌ إن الله تبارك وتعالى ينصر المؤمنين لكن ينصـــرهم عندما ينصرون دينه (إِن تَنصُرُوا اللهَ يَنصُركُم...)(٩).

لقد غاب عن أذهان الكثير مـــن المسلمين ، أنهم يواجهون ألف مليون إنسان منظّم في أوربا وأمريكا لا يريدون للمسلمين أن يتقدّموا، وأنّهم يحاربون أية خطوة يخطوها المسلمون نحـــو الأمام ، فهم أعداء المسلمين التقليديون .

لقـــد فهم الغرب إنّ أيّ تقـــدّم معناه كساد الأسواق الغربية ، ووقوف معاملهم عن الإنتاج ، ومعناه أيضاً هزيمتهم فكرياً ومعنوياً ، ومعناه أيضاً انهزامهم في مناهج الإدارة والتقنين .

إنّهم يفهمون أن تقدّم المسلمين يعني مناصفة السيادة في العالم بينهم وبين غيرهم .

أي أن يتبقى لهم من السيادة نصفها ويكون نصفها الآخر للإسلام، وهذا ما لا يطيقوا تصوّره .

إنّهم لا يقبلون حتى بمناصفة السيادة بل بنسب أقلّ من ذلك بكثير مع البوذيين والهندوك ، فكيـــف بالمسلمين الذي يعتبروهم أعداءهم الحقيقيين .

معرفة العدو

لقد بذل الغربيون خلال نصف قرن «ألف مليار دولار» لمحاربة الشيوعية حتى أسقطوها وجعلوها في خبر كان .

وقد صرفوا هذه المبالغ على القدرات العلمية وعلى الحرب النفسية وعلى الإنفاق العسكري وعلى الجواسيس وعلى ...

وفي ظن الغرب أنّهم يعيشون اليوم نشوة الانتصار ، فهل سيدَعون للمسلمين فرصة لأن يكونوا قوة عظمى تنافسهم ؟

لكن على رغم محاولات الغرب لنسف أيّ تقدّم إسلامي «لابدّ من صنعا وإن طال السفر» كما جرى المثل الشائع .

فسنة الله التي كانت إلى جانب المسلمين يوم بنوا حضارتهم ـــ عبر الالتزام بمناهج الإسلام ـــ ستكون إلى جانبهم متى شاؤا ذلك .

وقد قال تعالى في كتابه : (وَتِلكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَينَ النَّاسِ)(١٠).

وقد وعد الله بنصر المؤمنين إن عاجلاً أو آجلاً : (إن تَنصُرُوا اللهَ يَنصُركُم وَيُثَبّت أَقدَامَكـــم)(١١)، (وإِن يَنصُركُمُ اللهُ فَـــلا غَالِبَ لَكُم...) (١٢).

ومن الواضح إن هنالك محاور خاصّة فـــي الغرب تعادي الإسلام والمسلمين ، وليس العداء طابعاً عاماً بل هنالك الكثير مـــن طبقات الشعب ومن المفكّرين من لا يحمل ذلك العداء بل إنه على استعداد ، فيما لو عُرض الإسلام بصورته الصحيحة ، لتقبّله ولاستجاب لمبادئه الإلهية(١٣) .

١ ــ سورة الأنفال : الآية ٢٤ .

٢ ــ الكافي (أصول) : ج ٢ ، ص ١٦٤ ، ح ٥ .

٣ ــ الكافي (أصول) : ج ٢ ، ص ١٧٠ ، ح ٥ .

٤ ــ وسائل الشيعة : ج ٨ ، ص ٥٩٧ ، ح ١ .

٥ ــ وسائل الشيعة : ج ٦ ، ص ٣٦٦ ، ح ٤ .

٦ ــ وسائل الشيعة : ج ٦ ، ص ٣٢ ، ح ١٦ .

٧ ــ راجع السبيل إلى إنهاض المسلمين ، والوصول إلـــى حكومة واحدة إسلامية ، للإمام المؤلّف (دام ظله) .

٨ ــ بلغ عدد سلاطين العثمانيين ٣٧ ، أولهم عثمان الأول بن أرطغرك الذي مسك بزمام الأمور سنة ٧٢٤هـــ (١٣٣٤م) وآخرهم عبد المجيد الثاني الذي بـــدأ حكمه سنة ١٣٤١هـــ (١٩٢٢م) ، وأشار الإمام المؤلف إليهم في كتابه موجز عن الدولة العثمانية .

٩ ــ سورة محمد : الآية ٧ .

١٠ ــ سورة آل عمران : الآية ١٤٠ .

١١ ــ سورة محمّد : الآية ٧ .

١٢ ــ سورة آل عمران : الآية ١٦٠ .

١٣ ــ للتفصيل راجع كتاب (الغرب يتغيّر) للإمام المؤلّف (دام ظله) .

الفصل الرابع: الاسلام بين عصرنا وعصر الرسول (ص)

نماذج للأمّة الحضارية

تقـــدّم المسلمون الأوائل لأنّهم كانوا أصحاب إيمان وعقيدة وقد ترجموا القرآن في سلوكهم ، وهذا يكفي لصنع الانتصار .

فالعديد ممن فتحوا البلدان لـــم يكونوا يعرفون الفرق بين الدرهم والدينار ، لأنّ بعضهم لم ير الدينار ، فالبعض منهم كان يعطي ديناراً ليأخذ درهماً وهو لا يعلم بقيمته .

وبعضهم لم يكن يعرف الفرق بين الملح والكافور ، فأخذ أحدهم حفنة من الكافور وألقاه في الطعام ، وعندما لم يستسغ الطعام ؛ قال : ليس لملحهم ملوحة .

وعندما أرادوا أن يعبروا نهر دجلة لم يكونوا يعرفون السباحة ، فاقتحموا النهر بقوّة الإيمان حتى قال فيهم الفُرس يومذاك : غيلان ، غيلان .

وعندما وصلوا إلى جبال (ليبيا) لم يكن أمامهم طريق سوى حفر الجبل لشقّ طريق للعبور .

ولازال هذا الطريق قائماً حتى اليوم ، وهو من الأماكن السياحية التي تُحيّر الألباب .

هكذا تقدّموا بالإيمان وبالامتثال لأوامـــر الإله الحكيم فـــي قرآنه الكريم ، لا غير .

لقد نفخ القرآن في نفوسهم ، فجعلهم يرمون لثواب الله وحده ، واستطاعوا أن ينتصروا وهم حفاة عُراة لا يجيدون القراءة والكتابة إلاّ القليل منهم .

أمّا اليوم فلدى المسلمون كلّ شيء .

لديهم الجامعات والصحف والمطابع والإذاعـــات والتلفزيونات ، لكنهم لا يملكون ذلك الإيمان الذي كان يملكه المسلمون الأوائل .

لديهم كلّ شيء ما عدا ـــ القرآن الناطق ـــ .

القرآن الذي يتحوّل إلى منهـــج للحياة ، وإلـــى مسيرة نحو بناء الحضارة ، وإلى قوّة لمواجهة عوامل الضعف .

الحضارة المعطلة

لقد طبقت قوانين الإسلام في عهد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ، ولو أخذ المسلمون اليوم بسيرة رسول الله في تطبيقه للإسلام لكان كلّ شيء قد تحسّن إلى الأفضل .

فلم نكن نجد هناك من يعاني الفقر والمرض والجهل والحرمان ، و لم نكن نجد الأوضاع المتردية الـــتي بلغتها البشرية اليوم . وبالأخصّ ما حلّ بالمسلمين من دمار وانهيار وتحطم .

والمشكلة إنّ البعض يعتقد إنّ الإسلام كدين هو سبب هذا الانهيار مع إنّ الأمـــر بالعكس تماماً ؛ إنّ سبب الانهيار هو ابتعاد الناس عن الدين الإسلامي ، وابتلائهم بحكّام جهلـــة لا يعـــرفون شيئـــاً عن الإسلام(١). بل الذي يعرفونه هو التبعية للأجنبي والتقليد الأعمى له .

لقد قُضي علـــى الإسلام و لم يبق منه سوى بعض الآثار القليلة ، وهي التي أبقت على الأمّة بالرغم من ضئالة تأثيرها .

وهي بالرغم من ذلك قادرة على أن تكون قاعدة لإعادة الإسلام إلى الحياة مجدّداً ، وكإشارة نقول : إن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ـــ كما يروي المؤرخـــون ـــ كان يخطب بعـــد كلّ صلاة يصليها جماعة ، وإذا عرفنا أن جميع صلوات الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) كانت علـــى شكـــل جماعة إلاّ عنـــد مرضه الأخير ، فلنفترض إنّ كلّ خطبة خطبها الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) تشتمل على صفحتين من الكلمات ـــ كمعـــدّل ـــ فإنّ مجموع ما يمكن تدوينه من كلماته (صلى الله عليه وآله وسلم) فـــي المدينة هو (٣٦) ألف صفحة ، عدا خطاباته في مكة ، وعدا خطاباته التي كان يخطبها في المناسبات المختلفة ، فأين هو هذا القدر من كلمات رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وأحاديثه ؟(٢).

وهل ما يوجد بين أيدي المسلمين اليوم أكثر من عُشر هذا المقدار؟

ولقد كانت إحـــدى المهام الأساسية لأئمة أهـــل البيت (عليهم السلام) هو ذكر وتوضيح ما خفي من آثار الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ولذلك قال (صلى الله عليه وآله وسلم) : (إنّي تاركٌ فيكم الثقلين ما إن تمسّكتم بهما لن تضلّوا كتاب الله وعترتي أهل بيتي وإنّهما لن يفترقاً حتّى يردا على الحوض) (٣).

إذن لابدّ من التفكير بإعادة الإسلام ككلّ متكامل فـــي سياسته واقتصاده و... إلى الحياة من أجل أنفسنا وإلاّ سيبقى حال المسلمين عاراً وشناراً .

إنّه لمخجل حقاً إنّ شخصاً واحـــداً كأديسون يقوم بثلاثة آلاف اختراع وفي كلّ يوم يمر هناك اختراع أو اكتشاف جديد فـــي عالم الغرب ، أمّا في بلاد المسلمين فالاختراعات الجديدة هـــي التفنن في وسائل التعذيب وفي بناء السجون وكمّ الأفواه وكسر الأقلام ، انه حقاً لأمر مخجل .

هكـــذا أراد لنفسه الاستعمار وهكذا أراده لنا ، وهكـــذا أردناه لأنفسنا ف(كما تكونوا يولى عليكم)(٤).

وعلى أيّ حال ، فإنّ الذي حدث أصبح تاريخاً .

يقـــول تعالى : (تلك أمّة قـــد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم)(٥).

ممّا تقـــدّم تبيّن لنا إنّ الإسلام لم يبق منه إلاّ الشيء القليل ، وهي أشياء لا تستطيع أنّ تغيّر واقع المسلمين ، لذا أصبـــح الإسلام كدين حضاري أمراً معطّلاً .

الإسلام لكلّ عصرٍ ولكل أرضٍ

البعـــض مـــن أرباب الثقافة المنحرفة يقولون : بأنّ الإسلام دين ودولة ، لكنه لا يصلح إلاّ للفترة التي حكم فيها . فهو لا يصلح لكلّ زمان ولا يصلح لكلّ أرض .

والبعض الآخر حاول أن يتفوّه بكـــلام مخفّف ، فقـــالوا علينا أنّ نصوغ الإسلام صياغةً جديدة ، حـــتى يتمكّن مـــن مجاراة الأوضاع الراهنة .

ولسنا بصدد الردّ علـــى هؤلاء ، لأنّ هنـــاك الكتب والدراسات الكثيرة التي كتبت في هذا المضمار، وهـــي تغنينا عن طرح الموضوع مجدّداً ، لكن ما نريد أن نقوله هو : إنّ الفوارق والاختلاف بين بلد إسلامي في الحال الراهن وآخـــر غير إسلامي أضحى طفيفاً للغاية ، وذلك في الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية وشبهها .

فمثلاً : ما الفـــرق بين بلدٍ إسلامي كتركيا وبلد غربي كاليونان ، فهل يشعر الزائـــر للبلدين بفـــروق ملموسة ســـوى بعـــض الفروق الظاهرية!

هل هناك فرق بين محطات الراديو والتلفزيون في البلدين ؟

هل هناك فرق في القوانين التي تحكم الزراعة والتجارة والصناعة في البلدين ؟

هل هناك فرق بين طبيعة الحكم في البلدين ؟

هل هناك فرق في منهاج المدارس والدوائر الرسمية بين البلدين ؟

طبعاً لا نجد ذلك الفرق المنشود : وهـــذا دليـــلٌ ملموس على إنّ الإسلام غائب عن الحياة .

وللمزيد من الأدلّة ، نعطي مثالين على ذلك !

المثال الأوّل : الزواج الـــذي جعله الإسلام سنة طبيعة مطابقة للفطرة البشرية ، فالرجل يحتاج إلى المرأة ، والمرأة تحتاج إلى الرجل ، إلاّ إنّ الإسلام يشترط الكفاءة ،وهو شرطٌ عقلائي قبل أن يكون شرطاً شرعياً. لذا لم يشترط الإسلام سناً معيناً أو مالاً أو جمالاً أو كونه من أية عشيرة ومن أي لون ومن أي بلـــد و لم يشترط نوع الوظيفة أو نوع الشهادة ، وهذه الشروط التي أدخلوها في الزواج لم يأت بها الإسلام وتجدها معتبرة في البلاد الإسلامية كغير الإسلامية ؟

وكانت الحصيلة هي زيادة نسبة العزوبة بين الجنسين ، ومضاعفة نسبة الانحرافات الجنسية ، كما تشير إلـــى ذلك التقارير الـــتي تملأ الصحف هذه الأيام .

المثال الثاني : الحج وهو عبادة دينيّة فرضها الله علـــى المستطيع إذ قال سبحانه وتعالى : (ولله عَلَى الناسِ حِجُّ البيتِ مَنِ استَطَاعَ إليهِ سَبِيلاً ...)(٦). وندب إلـــى الحج حـــتى غيـــر المستطيع بالعنوان الاستحبابي ، فقد ورد في دعاء ليالي شهر رمضان المبارك : (وارزُقني حجَّ بيتكَ الحرَامِ في عامي هذا وفي كُلِّ عامٍ)(٧).

ولعل الكثير من كبار السن يتذكّر إنّ سفر الحج إلى مكّة المكرّمة كان كسفرة بين النجف وكربلاء من حيث سهولة التصميم والقرار .

فقد كان الحُجاج يقررون السفر ثم يسافـــرون إلـــى مكّـــة كما يسافرون إلى مدينة أخـــرى ، فلا جوازات ولا فيز ولا قوائم القرعة ولا ...

فقد كان الحاج يتفق مع جمع من الحجاج الآخرين ويأخذون معهم عدّة السفر ثم يسافروا بلا خوف من إنّ هناك من يمنعهم على الحدود أو يرمي بهم في السجن، لأنهم من البلد الفلاني أو من المذهب الفلاني.
وبالإضافة إلى هذه الخصلة ، كان المسلمون كياناً واحداً .
وقبل أكثر من أربعين سنة عندما حَججتُ شاهدت بنفسي تآزُر المسلمين وتعاونهم فيما بينهم بالرغم من أنهم من بلدان مختلفة ومن أشكال متنوعة ومن مذاهب مختلفة .
وكان المسلمون يجلسون ليتباحثون فيما بينهم عن أمورهم أشبه ما يكون بالندوة الواسعة المفتوحة .
هكذا كان الحج بالأمس القريب ، وقد ذكرنا بعض التفاصيل في كتيب (الحج بين الأمس واليوم والغد) .
وقس على هذين المثالين ، الولادة والموت والكسب والزراعة والسكن والسفر والإقامة ، وما أشبه ذلك .

١ ــ ذكر هيكل رئيس تحرير جريدة الأهرام الأسبق : أنه شَهِدَ حواراً بين الرئيس الباكستاني أيّوب خان وبين أحد الرؤساء العرب ، بدأ بتساؤل طرحه الرئيس الباكستاني حول سبب تخلف الشعوب الإسلامية .
وكان رد الرئيس العربي : إن التخلّف له أسبابه المعروفة ، من سوء توزيع للثروة ، وسوء استغلال الموارد ، ونهب استعماري دام عشرات السنين .
لكن الرئيس الباكستاني عاد يتساءل : لماذا الشعوب الإسلامية بوجه أخص ؟
وعندما راح الرئيس العربي يشرح الأسباب التي ذكرها ، سارع الرئيس الباكستاني إلى القول : لا يا سيادة الرئيس ، إن هناك خطأ ما عند المسلمين ، وليس خطأ في الإسلام.. وليس خطأ في الكتاب ــ القصد القرآن الكريم ــ فهمي هويدي، القرآن والسلطان ص ١٤.
٢ ــ وكذا الإمام علي (عليه السلام) حيث خطب ما يقارب (٦) آلاف خطبة وإن ما جمعه السيد الرضي (قدس سره) من خطبه في نهج البلاغة هو الشيء اليسير .
٣ ــ وسائل الشيعة : ج ١٨ ص ١٩ ح ٩ .
٤ ــ نهج الفصاحة : ص ٤٦٢ ح ٢١٨٢ .
٥ ــ سورة البقرة : الآية ٣٤ .
٦ ــ سورة آل عمران : الآية ٩٧.
٧ ــ الدعاء والزيارة : ص٣٦٧ .

الفصل الخامس: الاسلام دين الحياة

كيف نعيد الحياة للإسلام ؟

فإذا أردنا أن نعيد الإسلام إلـــى الوجود مجدّداً ، فإننا بحاجة إلـــى أمرين اثنين ـــ إضافة إلـــى ما سبق من إيجاد الوعي وتحقيق الأخوة ، والأمّة الواحدة والحرّية والشورى ـــ هما :(المبدأ) و(المعاد) كما فعل القرآن الكريم والرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله وسلم) وآله الأطهار ذلك .

علينا أن لا نعتبر هذا أمراً هيناً ، فإنّ معنى الاعتقاد الجازم بـ(المبدأ والمعاد) يعني أن يشعر الإنسان فـــي قرارة نفسه بأنّه مراقب في كلّ لحظة من حياته مراقبة دقيقة ، أن يشعر بوجود الملائكة الـــتي تسجّل كلّ سكناته وحركاته ؟

(مَا يَلفِظُ مِن قَولٍ إلاَّ لَدَيه رَقيبٌ عَتِيدٌ) (١). (كرَاماً كَاتِبِينَ يَعلَمُونَ ما تَفعَلُونَ) (٢). ومن وراء الكرام الكاتبين الخالق العظيم الذي (لا تَأخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَومٌ) (٣). وإنّ هـــؤلاء المراقبين لا يسقطون حقاً ولا يثبتون باطلاً(٤) .

وإنّ الإنسان محاسب فـــي هذه الدنيا قبل الآخـــرة : (وَأنَّ سَعيَهُ سَوفَ يُرَى ثمّ يجزَاهُ الجَزَاءَ الأَوفَى) (٥) ، ثمّ يتحسّس الإنسان المسلم وهو في الدنيا حساب الآخـــرة ، وكأنّه سيأخذ إلـــى الحساب على رؤوس الإشهـــاد ، (فَمَن يَعمَل مثقَالَ ذَرَّةٍ خَيراً يَرَهُ وَمَن يَعمَل مِثقَالَ ذَرَّةٍ شرَّاً يَرَهُ) (٦). فالإنسان مجزى بعمله إنّ خـــيراً فخيراً وإنّ شراً فشراً ، ثمّ (يُجزَاهُ الجَزَاءَ الأَوفَى) (٧). وإنّهُ لا فـــرق فـــي هذا الجزاء بين العقيدة والعمل والنية .

عظم المسؤولية

قال سبحانه : (وإن تُبدُوا مَا فِي أَنفُسِكُم أَو تُخفُوهُ يُحاسَبكُم بِهِ اللهُ ...)(٨). ولقد عاقب الله سبحانه وتعالى قوم صالح عندما فعل بعضهم المنكـــر (وهو عقر الناقة) وبعضهم تعاون مع الفاعلين وبعضهم سكت ، فشملهم العذاب بأجمعهم .

وقد ورد في الزيارة : (ولَعَنَ اللهُ أمةً سَمِعَت بذلكَ فَرَضِيتِ بهِ) (٩).

إنّ الذوبان في فكـــرة (المبدأ والمعاد) تُشعر الإنسان بأنّه بين الجنّة بدرجاتها المتصاعدة وبين النار بدركاتها المتنازلة .

وقد رأيت فـــي عمري المحدود أناساً تلمح عليهم آثار خوف الله سبحانه ويتجلّى ذلك في وجناتهم وحركاتهم وسكناتهم .

وقـــد عاشرت السيد حسين القمـــي والسيد الوالد وغيرهما من المراجع ، ورأيتهما إذا سئلا عن مسألة لا يتذكرانها قالا : لا أتذكر .

وكانا يقولان ذلك في محضر من الناس .

وشاهدت السيد عبـــد الهادي الشيرازي (رحمة الله) كيف كان يخشى من توجيه الناس إليه لتقليده في الأمور الشرعية بعد السيد أبو الحسن الأصفهاني ، كما يخاف أحدنا من هجوم أسدٍ عليه .

وسمعت إنّ واحداً من طلبة العلوم الدينيّة دعـــى الله سبحانه بكلّ جدٍّ ، عند حرم الإمام علي (عليه السلام) : إنّه ان لم يكن من المقدّر له أن يبقى حتى يـــدرك زمان الإمام المهـــدي (عجل الله تعالى فرجه) فليعجِّل الله في موته ، وقد أخذته الحمى عقيب دعائه مباشرة و لم يبق إلاّ ثلاثة أيّام ، حتى التحق بالرفيق الأعلى .

وشاهدت عميّ السيد جعفر وقـــد كانت الآخـــرة عنده كغَدِهِ ، فعندما كان يودِّع صديقه كان يَعِدَهُ أن يجتمع به غداً فـــي الآخرة ، كما يَعِدُ أحدنا الآخر بأنً يلتقي معه غداً .

ورأيت الشيخ الطالقاني (رحـــــــمه الله) الذي قال عـــنـــــد موته في محضر من العلماء ، وقد عرق جبينه وفتح عينه بعد غشوة : (لو أنّ المؤمن علم ما أعدّه الله سبحانه وتعـــالى له فـــي الآخرة : لم يبع دقيقة من الآخرة بكلّ الدنيا .

ورأيت السيد الطباطبائي (رحمه الله) الـــذي لم يسمح لنفسه أن يكذب كذبة واحدة ليربـــح بسببها (تولية الوقف) تدِرُّ عليه أموالاً طائلة ، بالرغم من كونه هو المتولي الشرعي ، لكن إثبات التولية لدى الدولة ـــ كانت تتطلب كذبة من السيد أمام الحاكم ـــ لكنّه لم يفعل ذلك .

ورأيت أشياء أخرى(١٠).

وكلّ من عمّر مثلي رأى أمثال ذلك أيضاً :

رأى كيف كان الحجاب في العراق في مدينتي النجف وكربلاء وما إليهما ، وكيف كانت النساء يتسترن خلف الحجاب ، فلا يظهر من وجوههن حتى بمقدار الأنملة ، إلاّ بعـــض النساء الريفيات ، وكنّ في أغلب الأحيان محجبات بالمقدار الشرعي .

ورأيت كيف كان الناس صادقين فـــي معاملاتهم ، وكيف كان الواحد يساعد الآخر ، فكان أسوتهم فـــي ذلك : (الدين المعاملة) و(الراحمون يرحمهم الرحمن ارحموا مَـــن فـــي الأرض يرحمكم مَن في السماء) (١١).

وكيف أصبح المسلمون اليوم ؟

وكيف أمست أسواقهم ؟

وكيف أصبحن نساؤهن ؟

لقد تغيّر المسلمون فغيّر الله واقعهم إلى أسوء .

(إنّ الله لا يغيّر ما بقوم حتى يغيِّرُ ما بأنفسهم) (١٢).

الاتكال على الله وطلب التوفيق

إنّ الاعتقاد بـ(المبدأ والمعاد) يُوجد فـــي النفس الشعور بعظمة الله وإنّه هو كل شيء في هذا الوجود .

فما من جمال أو كمال وما من حاجة إلاّ وهي بيده ومنه .

لقد جاء جبرئيل إلى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بهذه الآيات، عندما عاد من الغار بعد نزول آية (اقرأ) ، وقـــد أخذته الرجفة من هول المسؤولية ، نزل عليه جبرئيل : (يَا أَيُّها المُدَّثِّر قُم فَأَنذِر وَرَبَّكَ فَكَبِّر وَثِيابَكَ فَطَهِّر والرُّجزَ فَاهجُر وَلا تَمنُن تَستَكثِرُ) (١٣).

أجل وربك فكبر: أيّ استشعر عظمة الله وإنّه أعظم من كلّ شيء، وأكبر من كل سلطة .

إنّه أكبر من كلّ كيد .

وأكبر من كل قوّة .

فكلّما وجدت شيئاً كبيراً أو قوياً أو عظيماً ، فـــإنّ الله أكبر منه وأقوى منه وأعظم منه .

وكلّما شاهدت جمالاً أو كمالاً فـــإنّ الله أجمل منه واكمل ، فهو مصدر الجمال ومصدر الكمال .

وبيده كلّ الحاجات . وقد جعل من الدعاء مفتاحاً للحاجات .

وقال ربكم : (أُدعُوني أَستَجِب لَكُم ...) (١٤).

وقال أيضاً : (وإِذا سَئَلَكَ عِبادِي عَنّي فَإِنّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعَوةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ...) (١٥).

وقال عزّ من قائل : (قُل اللهُمَّ مَالِكَ المُلكِ تُؤتِي المُلكَ مَن تَشَاءُ وَتَنـــزِعُ المُلكَ مِمَّن تَشاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وتُذِلُّ مَن تَشاءُ بِيَدكَ الخَيرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شيءٍ قَدِيرٌ) (١٦).

وقال أيضاً : (مَن كانَ يُرِيدُ العِزَّةَ فللّهِ العِزةُ جَميعاً) (١٧).

وفي يوم بدر وعندما أركب المشركون العزى وهُبل علـــى الجِمال وكانوا يهتفون : (إنّ لنا العزّى ولا عزّى لكم) .

قال الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) للمسلمين قولوا في قِبالهم (الله مولانا ولا مولى لكم) (١٨) .

وعندما كانوا يهتفون : (اعلُ هُبل اعلُ هبل) .

طلب الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) من المسلمين أن يهتفوا قائلين : (الله أعلى وأجل) (١٩).

هذه عن العظمة

أمّا عـــن الجمال : فـــ (إنّ الله جميل يحب الجمال) (٢٠) كما ورد في الحديث.

ومن يطلب العزّ والجمال والكمال فطريقه هو الله تبارك وتعالى . وذلك بنصر دينه والالتزام بمناهجه وقوانينه .

وقد قال سبحانه : (إن تَنصُرُوا اللهَ يَنصُركُم وَيُثَبِّت أَقدَامَكُم) (٢١).

وقال أيضاً : (إن يَنصُركُمُ اللهُ فَلاَ غَالِبَ لَكُم..) (٢٢).

الطريق إلى العزة

فمن خلال هذه الآيات .

ومن خلال الواقع التاريخي للمسلمين .

ومن خلال الواقع الشاهد على تردّي المسلمين .

ومن خلال جميـــع هذه الأبعاد ، إذا أراد المسلمون السلطة والعزة والجمال والكمال وكلّ خـــير ، فإنّ عليهم أن يلجؤا إلى الله سبحانه ليفيض عليهم منها ـــ كما يشاء ـــ ، (أمَّن يُجِيبُ المُضطرَّ إذَا دَعَاهُ ويَكشِفُ السُّوءَ) (٢٣) ، ويجعلكـــم خلفاء الأرض ، فيجب أن يستشعر كلّ واحد منّا خوف الله .

ويجب أن نستشعر إلى جانب الخوف الأمل والرجاء .

الأمل بالنصر

والرجاء بثوابه

وهذه هي الأسّس النفسيّة لأيّ انتصار: الخوف .. الأمل.. الرجاء.

يجب أن يكون كلّ واحـــد منّا مستعداً لتحمّل المسؤولية و (تحت الخدمة) .

فكلّ قـــول نقوله وكلّ فكـــر نفكّره وكلّ عمل نقوم به ، يجب أن يكون تحت ظلّ القرآن والسنة .

يجب أن نكون في حضور دائم منقادين انقياداً تامّاً إلى الله سبحانه، مسلّمين أمرنا تسليماً كاملاً له .

وهذه هي كلمة البداية وإن جـــاءت فـــي النهاية . وإنّها هي أوّل شرط للنهوض ، فبالتسليم المطلق لله ، والذوبان في المبدأ والمعاد يحصل المسلمون على سيادتهم وعزّتهم .

صحيح إنّ الكثير من حكام المسلمين سابقاً كانوا فاسقين ويعملون بالفجور ومع ذلك كانت السيادة للمسلمين .

وصحيح أيضـــاً إنّ حكّـــام الغرب يرتكبـــون المعاصي ويعملون المنكرات ومع ذلك فالتقدّم من نصيبهم .

هذا صحيح ، ولكن : ليس هذا هو المقياس .

المقياس هو العامّة وليس الخاصّة وهـــو مختلف القوانين لا جانب واحد منها .

فصحيح إنّ الخلفاء كانـــوا منحرفين لكـــنّ الإطار العام للشعب وللقوانين الحيوية كان إسلامياً ، فالقوانين فـــي مجال : حرّية التجارة والزراعة والسفر .. والسلوك ، المظاهر والبواطن إلاّ مَن شذّ وندر .

أمّا اليوم فقد تغيّر الأمران .

فالعامّة ترتكب المنكرات من شرب الخمور والسفور وتتعامل بالربا وتمارس البغاء والغناء وتستخدم أدوات الطرب واللهو .

والأحكـــام الإلهية في الزراعة والصناعة والـــدولة و... تغيّرت من قوانين إسلامية إلى قوانين فرنسية وبلجيكية .

أمّا الغرب فحسابهم يختلف تماماً .

فالأوّل : ليس مـــن يعلم كمن لا يعلم ـــ كمـــا ورد في الحديث الشريف .

وثانياً : الغـــرب استفاد مـــن الإسلام الكثير ، ويمكننا أن نراجع الكتب الكثيرة التي كتبت في هذا المجال(٢٤)، والمسلمون هم آباء العلم الحديث .

فالغرب أخذ من الإسلام الحرّية التجارية .

وأخذ منه قواعد استثمار الأرض في الزراعة .

وأخذ منه قاعدة المضاربة في تطوير الصناعة .

وأخذ منه بعض الشورى وسماها بالديمقراطية ، لأنّ هناك فروق بين الشورى في الإسلام والديمقراطية الغربية ، ذكرناها في بعض كتبنا(٢٥).

أمّا التزام الغرب ــ في حدود معيّنة ــ بقضية حقوق الإنسان واحترامه للكفاءات والتزامه بالنظافة والنظام وبالتكافل الاجتماعي ، فهي من مزايا الحكم الإسلامي .

وما ترى من مثالب الغرب وطغيانه وتعدية على حقوق الآخرين ، فإنما هو نتيجة تركه للالتزام بكامل القوانين الإسلامية الحيوية من حيث يشعر أو لا يشعر ، وكان تقدّمه رهين بهذا القدر الذي تمسك به .

لقد استفاد الغرب منها بعد أن تركها المسلمون ، ولقد قال الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) : (الله الله في القرآن لا يسبقنكم بالعمل به غيركم)(٢٦).

وهذا هو الخسران الأكبر ، أن يربح أعداءنا على حساب ما نملك، ولو استفاد الغرب من كلّ قوانين الإسلام في الاقتصاد والسياسة والأخلاق و..لتحولت الدنيا إلى جنة ...

ولولا بقايا لطف الله بالمسلمين ، لكان الأمر عليهم أشدّ وأسوء ، كما قال تعالى في الحديث القدسي : (لصببتُ عليكم العذاب صبّا).

نسأل الله العزيز أن يعود علينا بوجهه الكريم وأن يوفقنا لما يحب ويرضى وهو المستعان .

سبحان ربّك ربّ العزة عمّا يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله ربِّ العالمين .

١٥ محرم ١٤١٥ هـ

قم المقدّسة

محمّد الشيرازي

١ ــ سورة ق : الآية ١٨ .

٢ ــ سورة الانفطار : الآية ١١ــ١٢ .

٣ ــ سورة البقرة : الآية ٢٥٥ .

٤ ــ وإنّما هناك أمور لله سبحانه يخفيها عنهم فلا يكتبوها ، فقد ورد في دعاء الإمام علي (عليه السلام) لكميل : (وكُنتَ أنتَ الرَّقيبَ عليَّ من ورائِهم والشاهِدَ لما خَفِيَ عَنهُم وبرحَمتِكَ أَخفَيتَهُ وبفَضلِك سترته) الدعاء والزيارة : ص١٢٧ .

٥ ــ سورة النجم : الآية ٤٠ .

٦ ــ سورة الزلزلة : الآية ٧-٨ .

٧ ــ سورة النجم : الآية ٤١ .

٨ ــ سورة البقرة : الآية ٢٨٤ .

٩ ــ مفاتيح الجنان : ص٤٣٠ ، زيارة الإمام الحسين (عليه السلام) .

١٠ ــ تطرق الإمام المؤلّف إلى أشباه هذه القصص في كتاب (حقائق من تأريخ العلماء) و(من أخلاق العلماء) .

١١ ــ غوالي اللئالي : ج١ ص٣٦١ .

١٢ ــ سورة الرعد : الآية ١١ .

١٣ ــ سورة المدثر : الآية ١-٦ .

١٤ ــ سورة غافر : الآية ٦٠ .

١٥ ــ سورة البقرة : الآية ١٨٦ .

١٦ ــ سورة آل عمران : الآية ٢٦ .

١٧ ــ سورة فاطر : الآية ١٠ .

١٨ ــ بحار الأنوار : ج ٤٤ ص ٧٦ ح ١ .

١٩ ــ بحار الأنوار : ج ٢٠ ص ٩١ ح ٢٠ .

٢٠ ــ وسائل الشيعة : ج ٣ ص ٣٣١ ح٦٤ .

٢١ ــ سورة محمد : الآية ٧ .

٢٢ ــ سورة آل عمران :١٦٠ .

٢٣ ــ سورة النمل : الآية ٦٢ .

٢٤ ــ من هذه الكتب (شمس الحضـــارة الإسلامية تسطع على الغرب) وراجع ، حول هذا المبحث كتاب : الصياغة الجديدة وكتاب من التمدّن الإسلامي وغيرهما للإمام المؤلف .

٢٥ ــ تطرق الإمام المؤلّف إلـــى الفرق بين الشورى والديمقراطية في طيّات الكتب التالية : (الشورى في الإسلام) و(الصياغة الجديدة) و(السبيل إلى إنهاض المسلمين) و(الفقه الحكومة العالمية الواحدة) كما لا يخفى إنّ الشورى في الإسلام مباينة للديمقراطية التي جاء بها اليونان في عصور ما قبل الميلاد . وإنّ ديمقراطية الغرب أشبه بالشورى من الديمقراطية اليونانية والرومانية .

٢٦ ــ نهج البلاغة : كتاب ٤٧ .